تجديد الخطاب الديني بين القبول والمعارضة

إعـداد

د. عاطف علي المليحي

الملخص العربي:

يؤكد البحث أن فكرة التجديد ليست أمراً جديداً علي التشريع الإسلامي، وليست غريبة علي ثقافتنا الإسلامية، وليست وليدة هذا العصر الذي نعيش فيه، بل إنها قديمة قدم الشرع نفسه، ومرتبطة وملازمة للشريعة الإسلامية في كل العصور. ولم تخلوا منها كتب الفقه الإسلامي علي مر العصور، وتطبيقاتها في الفقه الإسلامي كثيرة تزخر بها مؤلفات علماء الإسلام قديما وحديثا، وإذا كان الدين مشمولا بالتجديد استنادا إلي حديث التجديد، فإن الفقه أولي جوانب الدين بالتجدبد، لأنه الجانب العملي المرن الذي يطلب منه مواجهة كل ما يجد من أمور الناس الحياتية والمجتمعية بالحكم، والفتوي، والبيان.

Abstract:

The research confirms that the idea of renewal is not something new to Islamic legislation, and it is not alien to our Islamic culture, and it is not a product of this era in which we live. The books of Islamic jurisprudence have not been devoid of them throughout the ages, and their applications in Islamic jurisprudence are many that abound in the writings of Islamic scholars, ancient and modern. He finds people's life and societal matters by judgment, fatwa, and statement.

المقدمة:

من شيوع تعبير «الخطاب الديني» و«تجديد الخطاب الديني» في الأوساط الثقافية والفكرية التي تعي مدلول هذه الألفاظك أو لا تدري مدلولها، قد يتصور البعض أن مسألة تجديد الخطاب الديني أضحت من المسلمات التي لا تقتضي جهدًا في إقناع الغير بها وأن حاجة المجتمع لها بادية لكل رؤية ثقافية ظاهرة أمام عين كل متأمل.

ولكن الواقع على غير ذلك، فالبعض ينحي عكس ذلك تمامًا ويرى أنه مصطلح بغيض وممقوت وفارغ من المضمون أو يقصد به عكس مضمونه ويشكل نوعًا من المؤامرة على الدين والفقه الإسلاميين.

فينتقد البعض الدعوة إلى التجديد في الخطاب الديني ويرى أنها مجرد أكذوبة ويقول «إن لافتة تجديد الخطاب الديني مثلت الشعار الفكري الأكثر انتشارًا في الوسط الثقافي العربي مؤخرًا وقد زاد الهوس بذلك الشعار والاندفاع المتحمس فيه من قبل شخصيات لم يعرف عنها أساسًا الاهتمام بالشأن الديني زاد بعد أن أعلنت الولايات المتحدة الأمريكية عن دعمها المالي والأدبي لمفكرين وكتاب وصحافيين ورجال دين ممن يقومون بطرح أفكار إسلامية جديدة تتوافق مع الحضارة الغربية ونمط الحضارة الغربية».

ويرى هذا الرأي أن معظم الآراء التي تشكل أطروحات تجديدية فذة كلها تجدد في الإسلام وكلها بلا استثناء لا تتأسس وفق أي قواعد علمية أو شرعية يعرفها المسلمون على مر تاريخهم منذ بعث نبيهم الكريم ﷺ حتى اليوم، بل يرون أنها تأتي على جثة هذا التراث العلمي والقواعد العلمية والمرجعية والشرعية.

المطلب الأول: تجديد الخطاب الديني بين المؤيد والمعارض:

يتساءل البعض: ماذا لو وجد العلماء الغيورون الذين أفتوا بغلق باب الاجتهاد عندما رأوا الفتاوى تباع وتشترى في بعض عصور الضعف الإسلامي من قبل السلاطين وأصحاب النفوذ وذلك على أيدي بعض ضعاف المنتسبين للعلم والفتوى ولما عمت البلوى وعجزوا عن وقف هذا الخراب رأوا هذا الرأي القاسي؟

ويتساءل: كيف يكون موقف هؤلاء العلماء الغيورين لو عاشوا زماننا هذا ورأوا الفتاوى بل الدين كله يباع ويشترى ليس لمصلحة محدودة لصاحب نفوذ هو من الأمة على كل كل إنما لمصلحة أمم أخرى لها عقائدها وشرائعها؟[١].

ويضيف البعض أن فكرة التجديد جاءت في العصر الحاضر بمفهوم مختلف عن المقصود به في الدين الإسلامي، وأن روح المؤامرة الغربية، وبالذات الأمريكية، سيطرت على الفكرة، فيقول تطوير الخطاب الديني، ويأتي بلفظ (تجديد الخطاب الديني) وسماه الاستعمار الإنجليزي قديمًا (تحديث الإسلام أو تحضير الإسلام أو تجديد الإسلام)، وجاءت هذه الدعوة متزامنة مع إعلان «بوش» الحرب الصليبية على الأمة الإسلامية في ١١ سبتمبر سنة ٢٠٠١م، وكأن المقصود من (الخطاب الديني) هو «خطاب الإسلام» دون غيره، وهذه الدعوة قديمة جديدة فقد كانت منذ الحملات الاستشراقية والتبشيرية على بلاد المسلمين كأحد أذرع صراع الحضارات التي يواجه الغرب بها الحضارة الإسلامية منذ قرون.

وحتى لا يلتبس الأمر على المسلمين فإن كلمة (تجديد) قد وردت في الحديث الذي رواه «أبو هريرة» أن الرسول ﷺ قال : «إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها»[٢]، والتجديد هو إعادة الشيء إلى اصله أو على مثل ما كان عليه، وبذلك فالحديث يفيد بأن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل قرن من الزمان من يعيد الأمة إلى مسارها الصحيح، ويبدد عنها الانحرافات والضلالات التي أصابت الأمة عبر قرن من الزمان، ومسار الأمة الصحيح إلى يوم القيامة هو كتاب الله ﷻ وسنة رسوله ﷺ، قال الرسول ﷺ في حجة الوداع: «وقد تركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلوا أبدًا أمرًا بينا كتاب الله وسنة نبيه»[٣].

عن العرباض بن سارية ﷺ قال : وعظنا رسول الله ﷺ موعظة بليغة: «... فإنه من يعش منكم بعدي فسيرى اختلافًا كثيرًا فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء المهديين الراشدين تمسكوا

---

[١] **جمال سلطان – «أكذوبة تجديد الخطاب الديني» – مقالة منشورة على موقع:**
http://www.hurras.Org/vb/showthread.php 13/2/2014

[٢] **سنن أبي داود «باب ما يذكر في قرن المائة»، الجزء ١١، ص ٣٦٢.**

[٣] **المصدر السابق نفسه، رقم (١٨)، ص ١٧٣ – ١٧٤.**

بها وعضوا عليها بالنواجذ وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة»[١]، وعن عائشة ﵂ أن رسول الله ﷺ قال: «من أحدث في أمرنا هذا ما ليس فيه فهو رد»[٢].

فـ «التجديد» في مفهوم المسلمين يعني أن نرجع إلى الطريق الصحيح والنبع الصافي وهو المتمثل في كتابه وسنة رسوله ﷺ.. هذا من حيث معنى التجديد في الفكر الإسلامي، أما الذي عناه الغرب من فكرة (تطوير الخطاب الديني)، إنما هو تغيير وتبديل وتحريف في جوهر الإسلام، لأن الغرب يرى أن الإسلام يحمل مفاهيم متميزة وخطابه يقوم على التمايز وعدم الاندماج والتمييع، وهو يحمل وجهة نظر خاصة، ويطرح نظامًا بديلاً لكل الأنظمة الوضعية، وبذلك فهو يشكل تهديدًا صريحًا لمصالح الغربن ولذا تعالت أصوات الساسة الغربيين بضرورة تطوير الخطاب الديني عبر صياغة جديدة ترضي آمال الغرب[٣].

ويبدو أن هذا الرأي قد أخذ فكرة مسبقة ورافضة لفكرة التجديد ويرى أن في قواعد السلف والعلماء السابقين والتراث الذي خلفوه لنا ما يكفي لاستخلاص الأحكام الشرعية.. وما نحتاجه فقط هو الطريق الصحيح والنبع الصافين وهو المتمثل في كتابه وسنة رسوله ﷺ. ونحن لا يمكن أن ننكر ذلك لكن ذلك لا يعني مطلقًا عدم الحاجة لتجديد الخطاب الديني وإعمال الفكر في ما استجد من أحوال المسلمين وما تغير من واقعهم فذلك يدعو بالضرورة إلى البحث لا عن ملاءمة الحكم الشرعي ولكن عن مدى توافر علة الحكم الشرعي لاستخراج الحكم المطابق للشرع والقدرة على التكليف والاستطاعة التي هي مناط حساب الله لخلقه على أعمالهم.

بينما يذهب البعض إلى اتجاه آخر وليس مقابلاً لهذا الاتجاه حيث يدعو لا إلى رفض فكرة تجديد الهطاب الديني إنما يرفض الخطاب الديني كلية كأطروحة ثقافية أو فكرية في السياق المعرفي والسياسي للمجتمع، ويرى أن المهم هو تحييد الخطاب الديني لا تجديد الخطاب الديني، وأنه هو السبيل للتصدي للتدين السلفي، ويرى أن هذا النمط المتشدد بدأ بظهور جماعة الإخوان المسلمين، وأن خصائص هذا التدين السلفي تبرز في الميل إلى التشدد

---

[١] **المصدر السابق نفسه، رقم (٢١) «باب في لزوم السنة»، الجزء ١٢، ص ٢١١.**

[٢] **صحيح البخاري، «باب إذا اصطلحوا على صلح جور»، الجزء ٩، ص ٢٠١.**

[٣] **د. أشرف أبوعطايا، ود. يحى الزيني، المرجع السابق، ص ٦٩٦.**

والتحريم أكثر من الإباحة واللجوء للعنف في مواجهة الآخر السياسي والديني وإقصاء المرأة عن الحياة العامة واختزالها في جسدها. وظهرت السلفية الثقافية تحت مسمى الغزو الثقافي الخارجي وإعاقة أي تطور ثقافي بمصادرة الفن والأدب وإقامة الدعاوى القضائية ضد رموز الثقافة[1].

وهكذا فإن الاتجاهين السابقين يرفضان فكرة التجديد في الخطاب الديني كلية ولكن لأسباب مختلفة تمامًا، فالاتجاه الأول يرى أن التجديد في الخطاب الديني هو مساس بالدين نفسه وهو رأي ينطوي على خلط فج بين الفكر والعقيدة، بين المبدأ والقاعدة الشرعية والتصورات الإنسانية لها بين قطعي الثبوت قطعي الدلالة وما يستوجب التأويل والفهم ويقتضي الاستنباط وإعمال العقل، كما سبق أن رأينا.

ومن الواضح أن هذا الرأي يبدأ من منطلق خاطئ إذ إنه يتصور أن مجرد تجديد الفهم وإعمال العقل في المتغير لا الثابت سوف يؤدي إلى العبث بالدين. وإذا كان هذا الرأي يتساءل: ماذا لو وجد العلماء الغيورون الذي أغلقوا باب الاجتهاد لمقاومة الفكر الخاطئ من وجهة نظرهم، ماذا كانوا ليفعلوا؟

فإننا نسأله، من هذا المنطلق: ماذا لو وجد هؤلاء في عهد سيدنا عمر ورأوه يمنع سهم المؤلفة قلوبهم أو يوقف حدًّا نص عليه القرآن وهو حد السرقة؟ ترى ماذا كانوا سيعتبرون «عمر» وماذا كانوا سيقولون عنه ؟

إنه خلط فج وغير مقبول، فلا يصح أن يكون علاج الداء بالهروب منه.. وإذا كان غلق باب الاجتهاد هروبًا من بلاء وفساد فكري فإن الدين الإسلامي لم يعرف ذلك مطلقًا وهو دين يقوم على مجابهة الرأي بالرأي والحجة بالحجة والإقناع والمجادلة بالتي هي أحسن.. أيصمت العلماء عند تفشي الفساد في الفتوى ويغلقون على أنفسهم أبوابهم؟ ألم يسمعوا قول رسول الله ﷺ : «أفضل الجهاد كلمة حق لدى سلطان جائر»؟ لا شك أن هذا الرأي يتناقض مع الإسلام

[1] هاجر صلاح – مقالة منشورة في جريدة القاهرة /٢٠١٠/١١ تعقيبًا على الورقة البحثية التي قدمها الدكتور عبدالباسط عبدالمعطي عن الشخصية المصرية والتغييرات التي طرأت عليها، مقدمة للمؤتمر السنوي للمركز القومي للبحوث الاجتماعية.

بالكلية ويغفل دوره في التغيير بالفكر والإصلاح بالحوار والدعوة بالعقل والمنطق.. وماذا عن حديث الرسول ﷺ بأن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها أمر دينها ؟

أما الرأي الثاني فإنه يذهب إلى إلغاء فكرة التجديد في الخطاب الديني ويرى أنها فكرة خطرة على الثقافة والمجتمع، وكأن الدين ضد العقل وأن الدين هو المقابل للانغلاق، وهذا عداء سافر للدين.

ولا أرى فارقًا كبيرًا في الأساس الذي يرتكن إليه كلا الرأيين إذ إن كلاً منهما يدكج بين الدين والفقه، بين الشرع والاجتهاد، بين النص والعقل، ويرى الأول أن إعمال العقل تجاه الدين هو مساس بالدين وإهدار لأسسه ومبادئه وقواعده القطعية.

بينما يذهب الرأي الآخر إلى أن الخطاب الديني يعبر عن الدين ولا يعبر عن فهم الدين، يعبر عن العقيدة ولا يعبر عن فهم منتج الخطاب للعقيدة، ولما كانت العقيدة ثابتة لا تتغير فمن الأفضل تنحية الخطاب الديني عن مجالات الحياة وإبعاده عنها كلية بتحييده دون تحمل مشقة ما يعرف بـ «تجديد الخطاب الديني».. ويدعو صراحةً هذا الرأي كل قوى المجتمع للانشغال بحوار وطني هدفه تحييد الخطاب الديني وإقصاؤه عن السياسة الرسمية وعن خطابات المجتمع المدني والأحزاب وغيرها، ولكنه يضيف أن هذا التحييد لا يعني إقصاءه عن الحياة الاجتماعية اليومية لكنه يعني عدم إملاء أي خطاب ديني سياسي على الناس[1].

غير أننا لا تفق مع هذا الرأي فأيًّا كانت المخاطر فإن الحاجة إلى تجديد الخطاب الديني أصبحت ماسة وضرورية ولا يعني وجود ضغوط من الغرب، خاصة الولايات المتحدة الأمريكية، لتبني مواقف او اتجاهات معينة، الاستسلام لها بل على العكس قد يكون من الضروري إعلان رأي قاطع وصريح من شأنه أن يوقف اتجاهات الفكر الغربي ويحد من المطامع والرغبات نحو «أمركة» الخطاب الديني أو تغريبه.

وهكذا فإنهما يذهبان إلى الاتجاه نفسه وإلى النتيجة نفسها بأنه لا مجال للحاجة إلى تجديد الخطاب الديني.. الأول لأن ذلك حسب فهمه يمثل نوعًا من الاعتداء على العقيدة،

[1] المقالة السابقة – هاجر صلاح.

والثاني لأن في الخطاب الديني اعتداءً على مدنية المجتمع، وهما على طرفي نقيض إلا أن الغريب أنهما ينتهيان إلى النتيجة نفسها.

ومع ذلك فإن هناك مخاوف تتعلق بالتجديد في المرحلة الحالية من أمرين، الأول: التربص الذي تكنه بعض الدول والجهات ضد الإسلام والتيارات الإسلامية ومحاولتهم إخضاع الخطاب الديني لتصوراتهم ورؤاهم فقد تؤدي هذه الضغوط من بعض الدول كالولايات المتحدة الأمريكية للخضوع والتسليم لها إما رغبا من خلال بعض من يؤمنون بالثقافات الغربية إيمانا مطلقا أو بعض من يدينون لها ولأجهزتها بالعمالة والتبعية، أو رهبا من خلال الخوف والسيطرة التي تمارسها بعض الكيانات والجماعات الإرهابية التي هي في الحقيقة من صناعتها وترعاها وتمدها بالمال والسلاح.. والثاني: ينبع من خطورة استغلال التيارات اللادينية للأوضاع التي تمارسها الجماعات الإرهابية أو ذات الفكر المتشدد وتسويقها على أنها تابعة للإسلام وأنها تعبر عن مفاهيمه وخطابه الديني فينتهي الأمر إلى معاداة للخطاب الديني أو تبني خطاب ديني يقوم على التفريط والتبديد لا التجديد والتطوير، فالواقع أن صوت الوسطية في الدول الإسلامية يكاد يكون منهكا بين تيارين، تيار التشدد والمغالات وإن لم يصل إلى الإرهاب والعنف، وتيار التساهل والتفريط والميل نحو قمع الدين وغلق المساجد عليه فلا يكون الدين حياة ولا الدين المعاملة.

وفي المقابل فإن الغالبية على ضرورة تجديد الخطاب الديني، ويرى البعض أن التجديد أصبح ضرورة والحاجة أصبحت ماسة إليه ويسوق إلى ذلك مبررا مقنعا ينبع من الصراع بين الحق والباطل في العقائد والأفكار في كل الأزمنة والأمكنة وأنه صراع متجدد ومستمر والأساليب والطرق متجددة كذلك، والحق والنور أولى بالتجدد والتطور والنهوض من الباطل، كما أن الظلام والباطل والفساد في تطور مستمر وتتجدد بطريقة سريعة ومرعبة مما يحتم ويؤكد ضرورة التجديد في الخطاب الديني الإسلامي، فالإسلام هو خاتم الديانات وصالح لكل زمان ومكان والنبي محمد ﷺ خاتم النبيين والمرسلين وبُعث إلى الإنس والجن كافة، والديانة التي هذا هو حالها لا بد أن تتربع على ذروة البيان وأنصع البرهان وأكما وأتم الشرائع والأديان.. ويخلص هذا الرأي إلى أن كل المقدمات والمعطيات في أمس الحاجة إلى خطاب

ديني ينطلق من حقائق الدين الناصعة المأخوذة من محكم الكتاب والسنة الثابتة بالفهم الصحيح وبمعرفة مقاصد الإسلام الكبرى[١].

وإذا كان الرأي الاول يتساءل: لماذا لا يكون هناك تجديد في الخطاب الديني في النصرانية أو اليهودية أو حتى البوذية أو عباد البقر، فهؤلاء، حسب التصور الأمريكي، أصحاب ديانات معتدلة ومستنيرة ولا تحتاج إلى تجديد أما الإسلام فهو فقط الذي يحتاج إلى تجديد وتطوير ليكون متحضرا وفقا للرؤى الغربية؟[٢].

المطلب الثاني: فكرة تجديد الخطاب الديني ودور الغرب:

الواقع أنه لا يمكن أن ننكر دور الغرب في انتشار فكرة تجديد الخطاب الديني، لا سيما بعد أحداث ١١ سبتمبر وغيرها من الأحداث الإرهابية التي مست مصالح الغرب، لكن في المقابل لا يمكن إغفال أن الدعوة للتجديد في الخطاب الديني برزت بشدة مع ظهور جماعات الإسلام السياسي وتوظيف الدين لخدمة أغراض سياسية أو استغلال الدين لإعطاء غطاء شرعي لعمليات الإرهاب والقتل وأحيانًا السطو المسلح.. ونحن من جانبنا وعلى المستوى الفكري يمكن القول باطمئنان إن المراجعات التي أجراها بعض قادة هذه الجماعات في السجون المصرية فترة التسعينيات هي نوع من تجديد الخطاب الديني الذي كانت تتبناه هذه الجماعات ولا يمكن اعتبار ذلك أنه كان تحت ضغط أمريكي أو غربي، بل هي مراجعة ذاتية من أنصار هذا التيار. صحيح أن الغرب يفتح جيوبه قبل ذراعيه لمن يحاولون مس العقيدة تحت مسمى «التجديد في الخطاب الديني» إلا أنه لا يمكن إغفال قضية تطوير الخطاب الديني شكلاً ومضمونًا بهذه الحجة، بل على العكس فإن الرد على هذه المفاهيم الخاطئة التي يتبناها الغرب ويروج لها دعاته إنما يقتضي أن نتناول آراءهم وتفنيدها، ويتعين إبراز لغة الاعتدال وثقافة الحوار في مفهوم الإسلام وكلها قضايا تلقي بالحجارة في مياه الفكر الإسلامي الراكد والذي يمكن أن نسميه «الخطاب الديني».

---

[١] **جمال محمد بواطنة – المرجع السابق، ص ٩، ١٠.**

[٢] **جمال سلطان – «أكذوبة تجديد الخطاب الديني»، المقالة السابقة.**

والواقع أن المتأمل في الفكر الإسلامي سوف يجد أنه في جميع العصور والحقب التي مر بها التاريخ الإسلامي كان هناك محاولات للفهم وأن هذه المحاولات أخذت صورة مكتوبة أو ألقيت في محاضرات ودروس فأصبحت خطابًا موجهًا للغير.. ألا يمكن اعتبار فكر أحمد بن حنبل، ثم ابن تيمية، والخلاف بين المعتزلة والأشاعرة، وأفكار ابن رشد، ثم الأفكار الإصلاحية في العصور الحديثة مثل جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده ورشيد رضا حتى طه حسين وعلي عبدالرازق، نوعًا من تجديد الخطاب الديني أيًّا كان اتفاقنا أو اختلافنا مع مضمون الخطاب الصادر عن هؤلاء؟

ألا يمكن إفساح مكانة خاصة وبارزة لتعامل عمر بن الخطاب مع النصوص القطعية على أنه نوع من التجديد في دراسة النص وإعلاء قيمة الغاية أو العلة على المضمون اللفظي الجامد وتطبيق النص لا بحرفيته بل من خلال ربط العلة بالواقع؟

ألا يمكن اعتبار ذلك ثورة في الخطاب الديني والتعامل مع النص بغايته لا بحرفيته، التعامل مع النص من خارج حروفه اللفظية الجامدة؟

والذي نراه أن الخطاب الديني متجدد بطبيعته وبصفة عامة وأن كثيرًا من علماء المسلمين لم يجددوا في خطاب غيرهم بل جددوا أيضًا في فكرهم وفقههم إما لتغير الظروف أو الانتقال من بيئة لبيئة مغايرة من حيث الطبيعة والظروف والعادات والعرف، فالإمام الشافعي غيَّر من فقهه الذي وضعه في العراق بعد أن انتقل إلى مصر والجميع يعلم أن له فقه قديم وفقه حديث.. وإذا كان هذا مع الشافعي نفسه فما بالنا ونحن نعيش في مجتمع يتغير ما بين لحظة وأخرى تغيرًا مذهلاً ويظهر فيه تجديد في كل لحظة وكل دقيقة وثانية[1].

وقد ذهب البعض إلى أن خطاب التجديد والإصلاح لا يعدو وليد الأحداث المتسارعة التي عصفت بالعالمين الإسلامي والعربي وتعاظمت بعد أحداث الحادي عشر من أيلول (سبتمبر)، ففي الحقيقة إن دعوات الإصلاح والتجديد انطلقت في القرن الماضي بيد أنها قصرت على النخبة بمعنى أنها لم تتحول إلى عمل مؤسسي واسع ومع تسارع التحولات

[1] راجع بحث السيد جمال محمد بواطنة، وزير الأوقاف والشئون الدينية بدولة فلسطين – بحث مقدم إلى المؤتمر العام الواحد والعشرين للمجلس الأعلى للشئون الإسلامية.

الحضارية النهضوية التي شهدناها أخذت بعض الحكومات في العالم العربي والإسلامي بالعمل على تبني الخطاب التجديدي الذي ما لبث أن تحول بعد أحداث أيلول من مطلب داخلي إلى مطلب خارجي وقرار سياسي وبالتالي حاز اهتمام كل الاتجاهات الفكرية والدينية وراحت تحاول إيجاد تفسير لظاهرة تحول الحديث عن الإرهاب إلى حديث عن إصلاح العالم الإسلامي والعربي وتحديث الخطاب الديني وجدال الداخل والخارج أو الأنا والآخر وشرح مفهوم التجديد المطلوب[1].

والأمر لا يتوقف على النظم السياسية وقواعد الحكم وأركان الدولة ومؤسساتها ولكن بروز بعض القضايا على الساحة الحياتية أو العلمية يقتضي التجديد الفكري لقواعد النص القرآني، ويقتضي إعمال العقل لاستخلاص الحكم بمنظور الواقع، فمثلاً موقف الإسلام من نقل الأعضاء أو أطفال الأنابيب والحمل في غير رحم الأم، وحتى بعض القضايا التي نعرفها نحن أصحاب القانو كسرقة التيار الكهربائي – مثلا – هل تدخل في مفهوم السرقة وهل لو أننا نطبق الحدود كانت تقطع يد سارق التيار الكهربائي!!

لا يتصور أبدًا أن تطوير القواعد الشرعية بهذا المفهوم واستخلاص الحكم الشرعي على النوازل الحاضرة والمستحدثات الظاهرة نوع من المساس بالعقيدة.. كما أنه في المقابل لا نجد اسمًا لذلك سوى أنه «تجديد في الفقه» سووف يستتبعه تجديد في «الخطاب الديني على هذا الفقه».

هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن المنكرين لأهمية الخطاب الديني بالكلية فمن البادي أنهم يفصلون بين الإسلام والدولة ويقصرون دور الإسلام على المسجد، وتلك قضية كبرى نابعة من عدم فهم لحقيقة الإسلام الذي هو دين عبادات ومعاملات وأنه ليس دينًا كهنوتيًا ومقصورًا على ممارسة الشعائر والطقوس إنما ينطوي على جانب حياتي وتنظيمي للسلوك البشري.

---

[1] **حيدر السلامي – «الخطاب الديني عبر الأثير» – مقالة منشورة على موقع شبكة «النبأ» المعلوماتية بتاريخ ٢٠١٤/١/١٢.**

والواقع أن هذه مسألة تحتاج إلى تناولها في مجلدات ولكن يبدو أن استغلال البعض للدين الإسلامي لتبرير ممارسات سياسية بحتة بعيدة عن قيم الإسلام، بل أحيانًا عن أي قيم أخلاقية، هي التي جعلت أنصار هذا الرأي – وهم غير قليلين في المجتمع – يدعون إلى تحييد الدين عن السياسة فهم لا يرون إلا الخطاب الدعوي أو العقائدي في الإسلام دون أي خطاب حياتي حقيقي.

وكما خلط أنصار التيار الأول بين العقيدة والخطاب المعبر عن فهم هذه العقيدة، أي بين الإلهي والشخصي، خلط أيضًا أنصار هذا الرأي بين الإلهي والشخصي، خلطوا بين النص ومن يستخدمونه ويروجونه لمصالحهم وهذه آفة ذائعة لدى بعض أصحاب التيارات المدنية في مصر فهم دائمًا ما يأخذون تصرفات وأفعال بعض التيارات الدينية كحجة لمهاجمة الفكر الإسلامي في جوانبه الحياتية أو رؤاه السياسية بصفة خاصة ويروجون لعدم صلاحيته ولخطورته على المجتمع.

وبرغم أن الحل الحقيقي هو تبني الرؤى الموضوعية والعقلانية في تطوير الخطاب الديني بعيدًا عن قداسة الفهم أو صبغ الفكر البشري بالصبغة الإلهية ليكون الخطاب تحت شعار أنه اجتهاد فمن أخطأ كما قال الرسول عن نفسه «فمن عندي ولو أصبت فمن عند الله».

ويمكن القول مع البعض إن قضية الخطاب الديني أصبحت تحتل أهمية خاصة في العصر الحاضر نتيجة لما ارتبط بهذا الخطاب من التباس وبما اكتنفه من غموض أخرجه عن جادة الصواب من قبل فريق استغل قضية التجديد للعبث بأصول الإسلام من المبددين الذين جعلوا من أصول الإسلام مجالاً لتجربة المناهج الفلسفية واللغوية الحديثة بزعم تقديم تفسير عصري أو تأويل حديث أو قراءة عصرية وغيرها من العناوين التي وفدت للبيئة الإسلامية عبر العقود الأخيرة بفعل التاثيرات الوافدة.

وفي مقابل هذا الفريق وجد فريق آخر كان يرى أن أي محاولة لتجديد الخطاب الديني تعد نوعا من المروق من الدين يجب مقاومتها والتصدي لها وأن من يدعو للتجديد هم غالبا من أهل الرقة في الدين والمتساهلين في الأصول[١].

وكما يقول البعض[٢] إنه في ظل تعرض العالم الإسلامي لتحديات معاصرة كثيفة وخطيرة يكون تجديد الخطاب الديني ضرورة ملحة لا لخدمة أغراض الولايات المتحدة أو الغرب في تقويض مناهجنا التعليمية أو إضعاف عقيدتنا الدينية وإكساب الأمة حيوية افتقدتها في ظل سباق رهيب يدور لاستلاب زمام ريادة في الدنيا كما أسبق في مضمارها ولدينا الفرصة لاستعادتها ببذل الجهد وليس بالأماني وحدها.

ولذلك لو نظرنا إلى عالمنا الإسلامي اليوم سنجد عجبًا، فنحن اليوم يكثر فينا الخطباء، ويغيب عنا الفقهاء، بالمعنى العام لكلمة «الفقه»، لا نزال نفتقد الكوادر البشرية المسلمة المتخصصة والمدربة، على الرغم من هذا التاريخ العريق في الدعوة ومسئولية «البلاغ المبين».

كما أن خطابنا في معظمه لا يزال داخليًّا، لم نستطع أن نصل به إلى مرحلة الخطاب العام والعالمي، علمًا بأن الخطاب الإسلامي توجه إلى الناس جميعًا منذ اللحظة الأولى لبدء الوحي، يقول تعالى: ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ [الأعراف : ١٥٨]، ويقول تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [سبأ : ٢٨].

عن ابن عباس – رضي الله عنهما قال : إن الله فضل محمدًا على الأنبياء. فقالوا: يا ابن عباس .. بم فضله على الأنبياء؟. قال: قال الله ﷻ : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ﴾ الآية}، وقال الله عز وجل لمحمد ﷺ : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ ﴾؛ فأرسله إلى الجن والإنس(٣).

---

[١] «تجديد الخطاب الديني» – الدكتور أحمد عرفات القاضي – مكتبة الأسرة ٢٠٠٨، ص ٧.

[٢] «تطوير الخطاب الديني» – نصر بن محمد بن رواق الصنقري، ص ٥ وما بعدها، منشورة على موقع:
http://www.scribd.com/doc/56311895/47075574

[٣] جزء من حديث رواه الترمذي برقم (٤٦).

قال الحسن البصري (رحمه الله): ليس الإيمان بالتحلي ولا بالتمني ولكن ما وقر في القلوب وصدقته الأعمال، ولهذا قال رسول الله ﷺ : من قال لا إله إلا الله مخلصًا دخل الجنة. قيل : يا رسول الله.. ما إخلاصها؟ قال: أن يحجره عن محارم الله تعالى[1].

المطلب الثالث: أسباب تجديد الخطاب الديني:

لقد أصبح من الضروري تجديد الخطاب الديني نظرًا إلى ما وصلت إليها أمة الإسلام من تخلف في شتى الميادين جعلها فريسة لما يُعرف بـ «الغزو الفكري والثقافي».. هذه التحديات التي تواجه الأمة الإسلامية تحتاج منا الإسهام بكل ما نستطيع لعودتها إلى ريادتها مرة أخرى ومن أهم الأسباب التي تُظهر حاجتنا لتجديد الخطاب الديني الإسلامي:

١. التطور المستمر في الحياة.
٢. تلبية حاجات الإنسان.
٣. حل المشكلات وإيجاد البدائل .
٤. الضعف العام لأمة الإسلام.
٥. مواجهة خطر العولمة.

فتتابع الأنبياء والرسل على مدى العصور والأزمان ليؤدوا مهمتهم التي بُعثوا من أجلها، وهي إخراج الناس من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان، فيغيروا وجه الحياة ويُهدوا الناس إلى طريق النجاة، فبعثتهم كانت لتجديد دين الله في النفوس، وهداية الناس إلى صراط الله المستقيم، وإرشادهم إلى طريق الفلاح في الدنيا والآخرة. وكلما ابتعد الناس عن مصدر الوحي – مصدر النور والهداية – أرسل الله إليهم رسولاً ليهديهم إلى صراطه المستقيم. قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اُعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ [النحل : ٣٦]. وقد ختم الله رسالاته برسالة سيدنا محمد ﷺ رسالة كاملة، شاملة، عامة، خالدة، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها. قال تعالى: ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾ [المائدة : ٣]. وقال : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [سبأ : ٢٨]. وقال أيضًا: ﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ

[1] «نوادر الأصول في أحاديث الرسول الحكيم» – الترمذي، ج٣، ص ١٦ – دار الجيل.

وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴾ [الأحزاب : ٤٠]. ولما كانت رسالته ﷺ عامة وخالدة وباقية بقاء الحياة نفسها – إذا أرادت المشيئة الإلهية توحيد المرجعية البشرية بهذا الدين – كان التجديد بديلاً عن تتابع النبوات التي في الأمم السالفة، حيث انتهت رحلة النبوة التاريخية بكل عطاءاتها وقيمها إلى المجددين من هذه الأمة، ورثة الأنبياء، الذين يصلحون ما أفسده الناس : ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ [فاطر : ٣٢].

لهذا كان تجديد الخطاب الديني ضرورة تحتمها طبيعة هذا الدين (الدين الخاتم)، ويحتمها الواقع المتغير والمتطور[١].

وهكذا فإن الخطاب الديني أصبح في حاجة ماسة إلى تجديد وإن هذا التجديد يجب أن يتم إيمانًا بالدوافع والمبررات الذاتية ولاحتياج المجتمعات الإسلامية إلى ذلك إذا أرادت أن تحقق نهضة شاملة تتخذ من الإسلام ومبادئه سندًا حقيقيًا ومنهجًا عمليًا لتحقيق ذلك دون النظر إلى أي اعتبارات خارجية أو رغبات من الغير في هذا الصدد.

وعلى هذا، فالرأي الغالب أن تجديد الخطاب الديني بشتى مناحيه وصوره أصبح حاجة ملحة وضرورية لأكثر من سبب:

أولها: محاولة البعض إنهاض الأمة واستمرار ثقافتها والتأكيد على استقلاليتها الفكرية وسماتها المستقلة وذاتيتها الحضارية الإسلامية ومحاولة استرداد العقل الإسلامي؛ ذلك أن ذاتية الأمة والعالم الإسلامي لا يتصور وجودها بغير تجديد الخطاب الديني وإعادة طرح مفاهيم كثيرة للمناقشة والحوار والوقوف على مدى صلاحيتها في الوقت الراهن.

إن محاولة استيعاب المستجدات العلمية والتقنية ومواكبة الغرب بتقدمه السريع والمذهل في شتى مناحي الحياة مع ضرورة الحفاظ على الهوية الإسلامية لا يمكن أن تتحقق أو تنجح إلا بتطوير الخطاب الديني ليستوعب كل ذلك في بوتقة واحدة ليُخرج رؤاه للعالم من حوله

---

[١] **د. جمال فتحي محمد نصار: «سمات الخطاب الإسلامي» – بحث مقدم إلى مؤتمر الاتحاد العالمي لعلماء المسلمين في الفترة من ٢٨ – ٢٠١١/٧/٢٩.**

معبرًا عن ذاتية الرؤية وفهم لمشكلات الواقع مع طرح الحلول من خلال منظور إسلامي بحت.. وهنا لن يقتصر الخطاب عل منحيين فقط الدعوى والسياسي بل لا بد أن يتنوع الخطاب في كل اتجاه فيتسع الخطاب إلى أن يتضمن رؤية شاملة اجتماعية وعلمية وفلسفية واقتصادية إلى جانب الرؤية السياسية والدعوية العقائدية.

ثانيًا: انتشار الفوضى في استخدام الدين كغطاء للأعمال الإرهابية والإجرامية سواء داخل الدول الإسلامية أو خارجها، بل لإرهاب الغير وتكفيرهم لمجرد الخلاف الفكري، واستغلال حاجة البسطاء معيشيًا والفقراء ماليا والأقل فكريا باسم الدين، وانتشار حالات الاستقطاب في المجتمع وتصنيف الناس على أساس تقبلهم للخطاب لا العقيدة في جوهرها واسسها، ومحاولة الاتجار بالدين واستغلاله لأهداف سياسية بحتى من منظور نفعي محض يخرج الخطاب الديني عن إطاره وأهدافه فلا يمكن التصدي لذلك كله إلا من خلال خطاب ديني حقيقي متطور قادر على المواجهة والمجابهة مع أعداء الإسلام في الخارج وتحجيم أصحاب الفكر المغلوط في الداخل وإبعادهم عن المواطن العادي البسيط، وتفويت فرصة استغلاله والمتاجرة بآلامه قبل آماله.

ثالثًا: المردود الذي يمكن أن يعود على المجتمع من خلال تبني خطاب ديني إصلاحي سواء في شقه العقائدي والاجتماعي والأخلاقي أو في شقه السياسي بعد تفسخ المجتمع وتقطع الروابط الاجتماعية، وظهور العديد من المشكلات التي لا تجد خطابًا دينيا لمعالجتها، فعلى سبيل المثالك المغالاة في المهور وتأخر سن الزواج وانتشار البطالة وقيم التسيب وانتشار الممارسات الاقتصادية المهلكة كالاحتكار والمغالاة في الأسعار والإسراف في مظاهر اللغو واللهو والعبث والإنفاق بتبذير على أشياء لا طائل منها في مقابل فساد سياسي وإهدار للحقوق وللحريات واضمحلال الثقافة وفساد بيئة التعليم وانهيار المنظومة الأخلاقية.. كل ذلك لا يمكن مواجهته إلا بتبني خطاب ديني قادر على الغوص في هذه المشكلات مع وضع حلول جذرية لها، فالسلوك الاجتماعي المتطبع بقيم الأخلاق المستمدة من التربية الدينية يمكن أن يكون فارقا في إصلاح أي مجتمع أي مجتمع وتغيير سلوك الفرد على نحو يحقق تنمية حقيقية ونهضة شاملة، لا اقتصادية فقط إنما أخلاقية واجتماعية واقتصادية وسياسية.

وعلى ذلك فإن الحاجة لتطوير الخطاب الديني، التي تنبع من تدهور حال الأمة داخليا والاستضعاف الذي تعيش فيه خارجيا، تجعل تطوير الخطاب الديني الإصلاحي ضرورة مهمة وأولوية ملحة لا تقل عن الطعام والشراب.

ليس هذا فحسب، بل إنها تأتي بالضرورة في بنية هذا الخطاب؛ فالأمة الإسلامية أو العالم الإسلامي لا يحتاج إلى الخطاب الديني فحسب وتطويره فقط، بل يحتاج إلى توسعة في نطاقه فلا يكون مقتصرا على الأمور الدعوية العقائدية بالحض على إيتاء الفرائض والسنن وهجر المعاصي والمحرمات أو يكون له وجه آخر وحيد هو النظام السياسي وأصول الحكم.

لا، وألف لا.. يجب أن يكون الخطاب الديني شاملاً للرؤى الاجتماعية والاقتصادية والفلسفية والعلمية، فطالما أنه خطاب ينطلق من دين شامل كامل لا بد أن يكون الخطاب شاملا وكاملا وإلا لن يكون له حظ من النجاح أو القدرة على التفاعل مع المجتمع بالتأثير فيه نحو الأحسن والأفضل.

ولا ندري لماذا كانت كل المحاولات، التي بذلت، من منطلق الخطاب الدعوي أو السياسي وتطوير مفاهيم الخطاب الديني على هذين المحورين وخلت لغة الخطاب الديني وبنيته من التركيز على هذه الجوانب الحياتية المهمة.

إننا نعتقد أن أحد أهم أسباب فشل رؤى الخطاب الديني من الناحية الواقعية هو عدم قدرتها على استيعاب حاجات الفرد والمجتمع بصورة كاملة وموضوعية وهي التي أدت في كثير من الأحيان إلى عدم تقبل هذا الخطاب واعتباره محض خطاب ديني عقائدي أشبه بلاهوتية العصور الوسطى وأنه ضد مدنية الدولة وحقوق الفرد المدنية والاقتصادية والاجتماعية.

وحتى الخطاب السياسي المقول به فإنه في ظل هذه الثنائية الفقيرة للخطاب الديني، دون تنوع حقيقي وملموسن ينظر إليه من قبل الكثير على أنه محض إضفاء قداسة على فكر سياسي مغلوط وربما يكون أصحاب هذه الرؤى معذورين حينما يجدون الخطاب الديني مقتصرا على السياسة والدعوة.

وحتى في مجال السياسة لا يقدم أي تصورات عصرية تتفق مع متطلبات الحياة وتعقيداتها التي تبدأ بالأعداد المليونية لشعوب الدول، ثم تشعب العلاقة بين المواطن والدولة وحاجته الإدارية والاجتماعية والاقتصادية بينما يكون الخطاب الديني غارقًا في عبارات مثل: «الإمامة» و«أهل الحل والعقد»، واعتبار تطبيق الحدود من ضمن المفهوم السياسي للدولة وخلط واضح وفج ورؤى تراثية تقف على أطراف البادية دون أن يكون في مقدرتها التعبير عن متطلبات مجتمع البيئة الرقمية التي ولدت مع تكنولوجيا الاتصالات.

إن الفجوة بين رؤى الخطاب الديني والواقع الذي نعيش فيه تجعل من الضروري والمهم والعاجل التنبه إلى اهمية وسرعة تطوير الخطاب الديني من أجل الحفاظ على الهوية التي لا تتشكل فقط من منظور عقائدي بحت أو فرض نظم ووسائل للحكم بقوة الدين وهيمنته على ضمائر البشر بل لا بد من منظومة كاملة وشاملة من كل النواحي الدينية والاقتصادية والاجتماعية والفلسفية والفكرية والسياسية تقوم على مواجهة النص بالواقع واستلهام الحكم من العلة أو الحكمة ولا تتوقف كثيرا أمام حرفية النص ولفظيته الجامدة.

والقول بغير ذلك سوف يشكل خطرا على مستقبل العالم الإسلامي أشد وأعنف من الخطر الذي يعيش فيه.

الخاتمة:

أكد البحث أن فكرة التجديد ليست أمراً جديداً علي التشريع الإسلامي، وليست غريبة علي ثقافتنا الإسلامية، وليست وليدة هذا العصر الذي نعيش فيه، بل إنها قديمة قدم الشرع نفسه، ومرتبطة وملازمة للشريعة الإسلامية في كل العصور. ولم تخلوا منها كتب الفقه الإسلامي علي مر العصور، وتطبيقاتها في الفقه الإسلامي كثيرة تزخر بها مؤلفات علماء الإسلام قديما وحديثا، وإذا كان الدين مشمولا بالتجديد استنادا إلي حديث التجديد، فإن الفقه أولي جوانب الدين بالتجدبد، لأنه الجانب العملي المرن الذي يطلب منه مواجهة كل ما يجد من أمور الناس الحياتية والمجتمعية بالحكم، والفتوي، والبيان.